

سورة الكهف (الآيات: 56 - 58)

17

١٧

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف صفات الكافرين المعرضين عن القرآن.
- 2- أن أدرك سعة رحمة الله في تأخير عقوبة العصاة.
- 3- أن أحرص على طاعة الله تعالى لأزداد هدى وبصيرة.

تمهيد

بعد أن بينت الآيات السابقة حرص الله تعالى على هداية العباد بضرب الأمثال لهم وتنويعها، وأن كثيراً منهم يمنعه الاستكبار والإعراض والجدال بالباطل من قبول الحق الذي بعث الله به الأنبياء، فيصيبه ما أصاب الأمم قبله من النكال، جاءت هذه الآيات مبينة حال هؤلاء المعرضين مع آيات القرآن.

فما سبب إعراض الكافرين عن الذكرى؟ وما الحكمة من إهمال الله لهم؟ وهل ذلك يقتضي إهمال عقوبتهم؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا فُتِّمَتْ بِهِ آلُؤُا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَىٰ عَذَابِهِمُ إِلَىٰ الْقُبُورِ فَلَنْ يَنْتَفِعُوا بِهَا أَبَدًا ۖ ﴿٥٦﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْنَا الْعَذَابَ بِاللَّاسِمْ مَوْعِدٌ لَّنَّيَجِدُ أُمَمٌ دُونَهُ، مَوْبِقَةً ۖ ﴿٥٧﴾ وَلَوْلَا الْغَفْرُ

أَفَلَا تَكْتَلُمُ لِمَ أَظْلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَفْلَكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿58﴾ [الكهف: 56 - 58].

الفهم

الشرح:

أَعْرَضَ: صد عنها وتولى.

فَدَّامَتْ: أسلفت وعملت.

يَبْقَاقُولُ: يعقلوا معانيه وشرائعه.

مَوْعِدٌ: ميعاد وميقات.

لِمَفْلَكِهِمْ: لهلاكهم وزمنه.

استخلاص مضامين الآيات:

1- ما صفات المعرضين عن هدى القرآن؟

2- ما الحكمة من إمهال الله للكافرين؟

التفسير

اشتملت آيات الدرس على ما يأتي:

أولاً: صفات المعرضين عن القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَرِهَ آيَاتِ رَبِّهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾، الاستفهام إنكاري بمعنى التقرير، والمراد: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، أن يعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير. وقوله: ﴿وَنَسِيَ مَا فَدَّامَتْ يَدَاكَ﴾ أي: طرح كبائره التي أسلفها. وقيل: تَرَكَ كُفْرَهُ وَمَعَاصِيَهُ فَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، فالنسيان هنا بمعنى الترك. وقيل: الْمَعْنَى نَسِيَ مَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ وَحَصَلَ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

ونسب السيئات إلى اليدين مجازاً من حيث كانت اليدان آلة التكسب في الأمور الجرمية، فجعلت كذلك في المعاني.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ جملة تعليلية، والتعليل بمثلها كثير في «إن» المكسورة، ومنه قوله تعالى لموسى: ﴿إِنَّا نَقَّبُ إِلَيْكَ بِرَعْوَىٰ إِنَّهُ كَصَغِيرٍ﴾ [النازعات: 17] وقوله: ﴿سَاءَ زُفَافَةً صَعُوداً ۚ إِنَّهُ فَكَرٌّ وَفَدَّرٌ﴾ [المدثر: 17-18]. والمعنى: أن إعراضهم عن الذكرى ونسيانهم ما قدموا من المعاصي كان بسبب ختم الله على قلوبهم وأسماعهم والضمير في ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ عائد على القرآن الكريم. أي: لئلا يفهموا آيات القرآن ويهتدوا بها. وقوله: ﴿أَكِنَّةٌ﴾ جمع كنان، وهو كالغلاف الساتر. واختلف المفسرون في هذا وشبهه من الختم والطبع، هل هو على الحقيقة أو المجاز؟ قال ابن عطية: «والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتجوز أيضاً فصيح، أي: لما كانت هذه المعاني مانعة في الأجسام وحائلة، استعيرت للقلوب التي قد أقساها الله تعالى وأقصاها عن الخير».

وقوله: ﴿وَقِيلَ إِنَّا نَنْهَوْنَهُمْ عَنْ قُرْآنٍ﴾، الوقر: ثقل السمع، وهو استعارة، أي: صمما معنويا عن الرِّشَادِ. قال ابن عطية رحمه الله: «وأما (الوقر) في الأذان فاستعارة بينة؛ لأننا نحس الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشرع سماعاً تاماً، ولكن لما كانوا لا يؤثر ذلك فيهم إلا كما يؤثر في الذي به وقر فلا يسمع، شبهوا به، وكذلك العمى والصمم والبكم كلها استعارات، وإنما الخلاف في أوصاف القلب، هل هي حقيقة أو مجاز؟»

وقوله: ﴿وَأَن تَدْعُهُمْ إِلَى الْغُيُوبِ فَلَنُيَقِّدَنَّ وَأَيُّهَا أَجْدَا﴾، الهدى: الإسلام وشرائعه وقيمه. وقيل: الإيمان. وهذا الشرط كأنه جوابٌ للرَّسُولِ ﷺ عَنْ تَقْدِيرِ قَوْلِهِ: مَالِي لَا أَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى؟ حِرْصاً مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى حُصُولِ إِيْمَانِهِمْ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿وَأَيُّهَا أَجْدَا...﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَلَنُيَقِّدَنَّ وَأَيُّهَا أَجْدَا﴾ مفيدة لنفي اهتدائهم في وقت نزول الآية، وكان الأصل إمكان أن يؤمن بعضهم ويهتدي بعد ذلك، لكن تأكيد النفي بقوله: ﴿أَجْدَا﴾ سد الباب في وجه احتمال أن يؤمنوا.

وقال أبو حيان رحمه الله: «وهذا من العام المراد به الخصوص، وهو مَنْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ وَقَضَى عَلَيْهِ بِالْمُؤَافَاةِ عَلَى الْكُفْرِ؛ إِذْ قَدْ اهْتَدَى كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَرَةِ وَأَمَنُوا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حُكْمًا

عَلَى الْجَمِيعِ، أَي: وَإِنْ تَدْعُهُمْ أَي: إِلَى الْهُدَى جَمِيعًا فَلَنْ يَهْتَدُوا جَمِيعًا أَبَدًا». [البحر المحيط: 7 / 195].

ثانياً: إمهال الله للعصاة وعدم معاجلتهم بالمؤاخظة:

قال تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، لما أخبر تعالى عن القوم الذين حتم بكفرهم، أنهم لا يهتدون أبداً، عقب ذلك بأنه للمؤمنين ﴿الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي: ذو العفو.

وقوله: ﴿لَوْ يَوَازِيهِمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: كفار مكة، أي: لجاءهم عذابه قريباً عاجلاً، وهذا من مظاهر رحمته المشار إليها قبل، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَوَازِيهِ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِ قَامِرًا ذَاتَ بَاقٍ وَلَئِنْ يُوَخِّرْهُمْ إِلَى آخِلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: 46]. و﴿مَا﴾ إما مصدرية أي: بكسبهم، وإما موصولة أي: بالذي كسبوه من المعاصي.

وقوله: ﴿بَلَّغْهُمْ مَوْعِدُكَ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾، ﴿مَوْعِدًا﴾ أي: أجلٌ مُّقَدَّرٌ يؤخرون إليه. والمعنى: بَلْ يُمَهِّلُهُمْ مَعَ إِفْرَاطِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَعَدَاوَةِ الرَّسُولِ ﷺ.

ويتحصل للكفار من اتصافه تعالى بالغفران والرحمة ترك المعاجلة، ولو أخذوا بحسب ما يستحقونه لبادرهم بالعذاب المبيد لهم، ولكنه تعالى أخرهم إلى موعد لا يجدون منه منجى.

واختلف في الموعد المذكور، فقيل: هو أجل الموت، وقيل: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يوم بدر، أو يوم أحد، وقيل: الحشر.

وقوله: ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا﴾، الضمير في ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عائِدٌ عَلَى الْمَوْعِدِ. وقيل: عائِدٌ عَلَى الْعَذَابِ. و«الموئل» المنجى والملجأ، قاله ابنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ زَيْدٍ، وَحَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ فِي الصَّحَاحِ. يقال: وأل الرجل يئُل إذا لجأ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: لَا وَأَلَّتْ نَفْسُهُ أَي: لَا نَجَتْ.

ثالثاً: تحذير الله تعالى للظالمين:

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى الَّتِي كُنْتُمْ لَهَا كَاذِبِينَ﴾، لما توعّد الله الكفرة بالعذاب الذي له موعد لا يخلف، أعقب ذلك بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما توعّد هؤلاء بمثله، وفي قوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ حذف مضاف تقديره: وَتِلْكَ أَهْلُ الْقُرَى، يدل على ذلك قوله: ﴿الَّتِي كُنْتُمْ لَهَا كَاذِبِينَ﴾، فرد الضمير على أهل القرى، والقرى: المدن، وهذه الإشارة إلى عاد وثمود ومدين وغيرهم. ﴿وَتِلْكَ﴾ ابتداء، و﴿الْقُرَى﴾ صفته، و﴿الَّتِي كُنْتُمْ لَهَا كَاذِبِينَ﴾ خبر. ويصح أن يكون ﴿تِلْكَ﴾

منصوبا بفعل يدل عليه ﴿أَهْلَكْتَلَهُمْ﴾، على قول من قال: زيدا ضربته.

وقوله: ﴿لَمَّا هَلَمُوا﴾ أي: حين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله والكفر بما جاءت به رسله. أو لأنهم ظلموا. فتكون ﴿لَمَّا﴾ تعليلية، للإشعار بعلة الإهلاك وهي الظلم، واستدل بهذه الآية أبو الحسن بن عصفور على حرفية «لَمَّا» وأنها ليست بمعنى «حين»؛ لأن الظرف لا دلالة فيه على العلية. وقيل: لا مانع من أن يكون ظرفا استعمل للتعليل. وحذف مفعول ﴿هَلَمُوا﴾ إما لتعميم الظلم، أو لتنزيله منزلة اللازم، أي: لما فعلوا الظلم.

وأشار تعالى بقوله: ﴿وَلَمَّا الْفُرَى﴾ إلى الحضارات التي كانت ببلاد العرب، كعاد وثمود ومدين وسبأ وقوم لوط وغيرهم. وعبر بالقرى وأراد أهلها وعمارها، فهو مجاز بالحذف. ورد الضمير على القرى باعتبار ذلك فقال: ﴿أَهْلَكْتَلَهُمْ﴾ وقال: ﴿لَمَّا هَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَفْلَكِهِمْ مَوْعِدًا﴾. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَفْلَكِهِمْ مَوْعِدًا﴾، أي: لهلاكهم زمنا لا يتخلف. وهذه الآية نظيرة قوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا وَلَقَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ٤ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: 54].

والغاية من الآية تحذير كفرة مكة من عذاب الظالمين قبلهم، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.

وقرأ الجمهور ﴿لِمَفْلَكِهِمْ﴾ بضم الميم وفتح اللام، من أهلك، ومفعول يكون في مثل هذا الزمن الشيء ولمكانه، ويكون مصدرا، فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر - شعبة - «لَمَهْلَكِهِمْ» بفتح الميم واللام، وقرأ عاصم في رواية حفص «لَمَهْلَكِهِمْ» بفتح الميم وكسر اللام. وهو مصدر من هلك، وهو في مشهور اللغة غير متعد، فالمصدر على هذا مضاف إلى الفاعل، لأنه بمعنى: وجعلنا لأن هلكوا موعدا.

رابعاً: لطائف وفوائد:

- بين قوله: ﴿الْفُدَى﴾ وقوله: ﴿يَفْتَدُوا﴾ جناس الاشتقاق، وهو بين المصدر والفعل المشتق منه، كما أن بين قوله: ﴿الْفُدَى﴾ بالإثبات وقوله: ﴿قَلْبِي يَفْتَدُوا﴾ مقابلة بين الإثبات

والنفي، وهي من المحسنات البديعية.

- وصف الله تعالى نفسه في الآيات بوصفين هما «الغفور» و«ذو الرحمة»، ولكل صفة منهما محلها، فمحل المغفرة الفعل، ومحل الرحمة الفاعل، فتقع المغفرة على الفعل القبيح فتستره أو تمحوه، وتقع الرحمة على الإنسان فترفع عنه العناء والشقاء، ومن ثم فالمغفرة تسبق الرحمة؛ لأن الرحمة إنما هي أثر للمغفرة ونتيجة ومظهر لها، فإذا غفر الله ذنب العبد رحمه فوقاه سوء عاقبته. ونلاحظ انه عندما يجتمع الفعلان في القرآن تقدم المغفرة على الرحمة، وهذا يكاد يكون مطردا في القرآن كله، إلا في موضع واحد، وهو قوله تعالى في سورة سبا: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَفَوَّ الرَّحِيمِ الْغَفُورُ﴾ [سبا: 2].

- ووجه الألوسي رحمه الله تقديم وصف «الغفور» على وصف «ذو الرحمة» في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بقوله: «وإنما قدم الوصف الأول - الغفور - لأن التخلية قبل التولية؛ أو لأنه أهم بحسب الحال والمقام؛ إذ المقام - على ما قاله المحققون - مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿لَوْ يَوْأَخِذُكُمْ﴾».

أروح المعاني: 8 / 288].

التقويم

- 1- هل قوله تعالى: ﴿وَفِي آيَاتِنَا نِعَمٌ وَفِرَآءٌ﴾ حقيقة أم مجاز؟ ولماذا؟
- 2- لماذا قدم المغفرة على الرحمة في قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾؟
- 3- ما القراءات الواردة في قوله تعالى: ﴿لِمَنْفُلِكِهِمْ﴾؟
- 4- ما أثر الإيمان باتصاف الله عز وجل بالمغفرة والرحمة على سلوك المؤمن؟

الاستثمار

قال الإمام القرطبي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾: «ذُو الرَّحْمَةِ» فِيهِ أَرْبَعُ تَأْوِيلَاتٍ: أَحَدُهَا: ذُو الْعَفْوِ. الثَّانِي: ذُو النَّوَابِ. وَهُوَ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مُخْتَصَّ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ دُونَ الْكُفْرِ. الثَّالِثُ: ذُو النِّعْمَةِ. الرَّابِعُ: ذُو الْهُدَى. وَهُوَ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يَعُمُّ أَهْلَ الْإِيمَانِ

وَالْكَافِرِ؛ لِأَنَّهُ يُنْعَمُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكَافِرِ كَانْعَامِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِ. وَقَدْ أَوْضَحَ هَذَا لِلْكَافِرِ كَمَا
أَوْضَحَهُ لِلْمُؤْمِنِ، وَإِنْ اهْتَدَى بِهِ الْمُؤْمِنُ دُونَ الْكَافِرِ». [الجامع لأحكام القرآن: 11 / 7].

1 - أَسْتَخْرِجُ التَّأْوِيلَاتِ الْأَرْبَعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْزُقُوا الرِّحْمَةَ﴾.

2 - مَا الْمَخْتَصُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي بِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَمَا الْعَامُ مِنْهَا؟

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات: 59 - 64 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

1 - ما سبب رحلة موسى عليه السلام؟ وبم وصف الله تعالى العبد الصالح؟

2 - ما المراد بالعبارات الآتية: لَا أَتْرُكُ - مَبْمَعُ الْبَحْرَيْنِ - مُغْبًى - فَصّاً - ارْتَدَّ؟